العدالة المؤسسة على الإيمان» والنظام الإيمانی

کوثر قاسمی

باحثة ما بعد الدکتوراه فی علوم القرآن والحدیث، کلیة الإلهیات، جامعة الزهراء، طهران، إیران. k.ghasemi@alzahra.ac.ir

فتحیة فتاحی‌زاده

أستاذة فی علوم القرآن والحدیث، کلیة الإلهیات، جامعة الزهراء، طهران، إیران. **(المؤلفة المسؤولة)**. f_fattahizadeh@alzahra.ac.ir

حبیب‌الله بابایی

أستاذ مشارک فی معهد الدراسات الحضاریة والاجتماعیة، المعهد العالی للعلوم والثقافة الإسلامیة، قم، إیران. h.babaei@isca.ac.ir

الملخص

لکلّ حضارة مؤشّراتٌ خاصة تُعبّر عن طبیعتها وتمیّزها عن سائر الحضارات. وعلی الرغم من ضرورة وجود بعض المؤشّرات فی جمیع الحضارات، إلا أنّ هذه المؤشّرات، وإن تشابهت فی الظاهر، تختلف اختلافًا جوهریًا فی طبیعتها. ویُعدّ «النظام» من أبرز المؤشّرات الضروریة لبناء الحضارات واستمرارها، غیر أن طبیعة النظام فی کل حضارة تتحدّد بحسب طبیعة تلک الحضارة. ففی الحضارات المادّیة، تُعدّ «القوّة» منشأ النظام، ویُفرض النظام من خلال القانون والإکراه الاجتماعی. أمّا فی «الحضارة التوحیدیة للأمّة»، فإن «الإیمان» هو الأساس الذی یُبنی علیه النظام. ویُقدّم القرآن الکریم «الحضارة التوحیدیة» بوصفها البیئة الأنسب لتکامل الإنسان وارتقائه. وتختلف طبیعة هذه الحضارة عن الحضارات المادّیة اختلافًا جذریاً، حیث تُنتج العناصر الإیمانیة طبیعة النظام فیها. ویُعرّف القرآن الکریم هذه العناصر الإیمانیة المکوّنة للنظام، ومن أبرزها «العدالة». فالعدالة فی الحضارات المادّیة لا تقوم علی أساس إیمانی، بل یُنشئها الإنسان الخاضع لأهوائه. بینما العدالة القرآنیة قد حدّد معالمها خالق الإنسان، وهی عنصر إیمانی بحسب القرآن. وتختلف العدالة القرآنیة عن العدالة المادّیة فی منشئها وطبیعتها وآثارها. تهدف هذه الدراسة إلی استنطاق الخصائص القرآنیة للعنصر الإیمانی «العدالة»، بوصفه أحد العناصر القرآنیة المُنتجة لمؤشّر «النظام» فی «الحضارة التوحیدیة للأمّة». وتتمحور إشکالیّة البحث حول طبیعة «العدالة الإیمانیة» وکیفیّة ارتباطها بمؤشّر «النظام». ما الآلیّة التی تُحقّق بها العدالة القرآنیة النظام فی المجتمع؟ تعتمد هذه الدراسة علی المنهج الاستنطاقی الذی طرحه الشهید الصدر (رحمه الله)، فی دراسة طبیعة مؤشّر النظام من خلال شبکة الآیات المتعلّقة بالعدالة، وبخاصة الآیة ۱۳۵ من سورة النساء. وقد اعتبر الشهید الصدر، استناداً إلی قول أمیر المؤمنین (علیه السلام): «ذلک القرآن فاستنطقوه»، أنّ الرجوع إلی القرآن الکریم لاستنباط النظریّة القرآنیة حول القضیة المطروحة هو المنهج الأمثل لفهم وتفسیر النصّ القرآنی. تتناول هذه الدراسة استنطاق مسألة «النظام» من خلال فهم طبیعة «العدالة» کأحد العناصر الإیمانیة وتحدید موقعها فی القرآن الکریم. فالعدالة

تتشكّل فى سياق العلاقات الإنسانية القائمة على الإيمان داخل المجتمع. وفى حين أن الحضارات المادّية تعتمد على الرقابة الخارجية التى يمارسها منفذو القانون البشرى لإرساء نظامٍ قائم على القوة، فإن «الحضارة التوحيدية للأمة» تُنتج نظامًا إيمانيًا من خلال الرقابة الذاتية لدى الإنسان المؤمن. وكلّما ازداد الإيمان، وتكاثرت العناصر الإيمانية فى بنية المجتمع، ترسّخ النظام بشكل أوسع. فحضور العناصر الإيمانية يُقلّل من الأنانية الجسدية، والاضطرابات الاجتماعية، والفوضى، ويُعزّز من روح الإيثار والنظام الاجتماعى. وتُعدّ «العدالة» من أبرز العناصر الإيمانية المنتجة للنظام. فكلّما تعمّق الإيمان فى المجتمع، ازدادت العدالة، و«العدالة المؤسسة على الإيمان» بدورها تنتج نظامًا إيمانيًا. وتُعدّ الآية ١٣٥ من سورة النساء من أهم الآيات التى تُبيّن خصائص «العدالة المؤسسة على الإيمان»، حيث يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا، وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا». وتُظهر هذه الآية أن إقامة العدالة فى العلاقات الإنسانية القائمة على الإيمان يجب أن تتمّ حتى لو تعارضت مع المصالح الشخصية أو العائلية. وتُستنبط من هذه الآية سبع خصائص جوهرية للعدالة الإيمانية: «الشمولية»، و«الرقابة الذاتية»، و«القيام الدائم»، و«الإخلاص»، و«الانحياز للحق»، و«التحرر من الأهواء» و«التزام التقوى». بناءً على ذلك، فإن «العدالة» فى «الحضارة التوحيدية للأمة»، تتّسم بثمانى خصائص جوهرية: ١. العدالة ذات منشأ إيمانى. ٢. إقامة العدالة واجبٌ عام، يشمل جميع البشر الحقانيّين. ٣. تحقيق العدالة وحفظها لا يقتصر على منفذى القانون فى المجتمع (الرقابة الخارجيّة)، بل يطبق الجميع -كلّ بحسب درجة إيمانه- من خلال الرقابة الذاتية على أعمالهم مستوى من العدالة فى المجتمع. ٤. العدالة يجب أن تُقام بشكل دائم ومستمر، لا موسمى أو مرحلى. ٥. يجب أن يكون الهدف من إقامة العدالة أداء الواجب الإلهى بإخلاص تامّ لوجه الله تعالى. ٦. يجب أن يكون الحق وتطبيقه معياراً للعدالة. ٧. العدالة يجب أن تُمارس أداءً للواجب الإلهى، وبعيداً عن الأهواء والشهوات. ٨. السعى إلى زيادة التقوى هو العامل الأساسى فى تحقيق النجاح المتزايد للعدالة الإيمانية. إن العدالة التى تتحلّى بهذه الصفات تُنتج نظامًا يفوق النظام فى كل الحضارات المادية. وكلّما ازداد «الإيمان» فى المجتمع، ازدادت «العدالة المؤسسة على الإيمان»، وبالتالى ترسّخ «النظام الإيمانى». ويُعدّ كلّ إنسانٍ حقّانى مسؤولًا عن إقامة العدالة فى «الحضارة التوحيدية للأمة»، وتتناسب مسؤوليته مع درجة إيمانه؛ فكلّما ارتقى إيمانه، تعاظمت مسؤوليته فى ترسيخ العدالة.

الكلمات المفتاحية: الأمة، العدالة، النظام الإيمانى، الآية ١٣٥ من سورة النساء، المنهج الاستنطاقى.

بيان المشكلة

تمثل الحضارة نظامًا كليًا من العلاقات الإنسانية المتحوّلة والمتكاملة، يتميّز بطابع منظومى ومنشأ عقلانى (بابايى، ١٣٩٩ش، ص ١٥٦). ويملك الدين الإسلامى، بوصفه الدين الخاتم، قدرةً شاملة على هداية البشرية جمعاء. ومن أجل تحقيق هذا الهدف العظيم، أى الهداية العامة، يقدّم القرآن الكريم نموذجًا حضاريًا فريدًا يتجاوز كلّ الحضارات. فـ«الحضارة التوحيدية للأمة» هى نموذج قرآنى للحياة الإنسانية السامية فى الدنيا والآخرة. كما يعكس الأمر القرآنى العالمى بتكوين مجتمع إنسانى عظيم قائم على التمسك بحبل الله جميعًا، ضرورة السعى لتحقيق «الحضارة التوحيدية»، حيث قال الله سبحانه: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (آل عمران، ٦٤). تمثل «الأمة» أكبر وأشمل نظام للعلاقات الإنسانية، وأفضل بيئة لتكامل الإنسان لتلبية الاحتياجات الشاملة المادية والروحية للفرد والمجتمع (قاسمى، فتاحى‌زاده و بابايى، ١٣٩٨ش، ص ٣١). الخطوة الأولى لتحقيق «الحضارة التوحيدية للأمة» هى تحديد مؤشراتها من آيات القرآن الكريم. فلبناء أى حضارة، لا بد من الوصول إلى مؤشراتها، كما تُستخدم المؤشرات للتمييز بين الحضارات المختلفة. ويعد «النظام» أحد المؤشرات المهمة فى أى حضارة، فلا حضارة تنشأ بدون «نظام»، كما أن استمرار أى حضارة يعتمد على ديمومة مؤشر «النظام». طبيعة ووظائف «النظام» فى «الحضارة التوحيدية» تختلف عن الحضارات المادية؛ حيث تمثل «القوة» فى الحضارات المادية العنصر الرئيسى فى إرساء «النظام».

على الرغم من أن كلمة «نظام» لم ترد فى القرآن الكريم، فإن هذا البحث –باستخدام المنهج الموضوعى للشهيد الصدر– يبحث عن منشأ «النظام» وآلية بنائه فى آيات القرآن الكريم. والمقصود بـ «النظام» هو الانضباط الاجتماعى المصحوب بنوع من الانتظام وتربية الروح لدى أفراد المجتمع (Newman, 1979, p.476). إن موضوع «النظام» فى القرآن الكريم هو مبحث مفصل، وهذا البحث يتناول دراسة جانب منه فقط. وفى هذه الورقة، تمت دراسة عنصر «العدالة» كأحد العناصر الإيمانية المكونة لـ«النظام» فى القرآن الكريم. ويعتقد الشهيد مطهرى (رحمه الله) أن الجذور والأصول الرئيسة للمناقشات العلمية حول مسألة «العدالة» يجب تتبعها فى القرآن الكريم (مطهرى، ١٣٨٨ش، ص ٣٥). فما هى طبيعة عنصر «العدالة» فى «الحضارة التوحيدية للأمة» وما هى خصائصها؟ ولقد عرّف أمير المؤمنين (عليه السلام) «العدالة» بقوله: «العدل يضع الأمور فى مواضعها» (نهج‌البلاغة، الحكمة ٤٣٧). ورغم كثرة الدراسات التى تناولت مفهومى «النظام» و«العدالة» بشكل منفصل، إلا أنه لم يتم بعد كتابة بحث يدرس «النظام» و«العدالة» معًا من منطلق إيمانى. فى هذا البحث، تم توضيح طبيعة «العدالة المؤدية إلى النظام» فى القرآن الكريم باستخدام منهج الاستنطاق المستمد من المنهج الموضوعى للشهيد الصدر (رحمه الله). يرى الشهيد الصدر (رحمه الله) –بالاستناد إلى قول أمير المؤمنين (عليه السلام): «ذلك القرآن فاستنطقوه» (نهج‌البلاغة، الخطبة ١٥٨)– أن أهم مرحلة فى المنهج الموضوعى هى استنطاق آيات القرآن الكريم بشأن القضية المطروحة. ويُقصد بـ«الاستنطاق» السعى لاستخلاص منظور القرآن حول المسألة المعنية، وهو بحسب رأى الشهيد الصدر أجمل تعبير عن التفسير الموضوعى. وقد قال أمير المؤمنين (ع) فى الخطبة ١٥٨ من نهج البلاغة: «ذلك القرآن فاستنطقوه، ولن ينطق، ولكن أُخبركم عنه؛ ألا إن فيه علم ما يأتى، والحديث عن الماضى، ودواء منكم، ونظم ما بينكم» (صدر، ١٣٩٥ش، ص ٤١) فى هذا البحث، تم أولًا توضيح طبيعة ومكانة «الإيمان» بوصفه منشأ «النظام» فى «الحضارة التوحيدية للأمة». ثم تمّ بيان ماهية «العدالة المؤسسة على الإيمان»، وأُعقب ذلك بشرح خصائص هذه «العدالة الإيمانية» بالاستناد إلى الآية ١٣٥ من سورة النساء.

١- النظام الإيمانى

يُعد «النظام» أحد المؤشرات الأساسية لقيام أى حضارة وديمومتها. وتتشكل طبيعة «النظام» فى كل حضارة بما يتناسب مع طبيعة تلك الحضارة. تمثل «الأمة» أكبر «حضارة توحيدية» حسب تعاليم القرآن الكريم. ففى الآية ١١٠ من سورة آل عمران، يتم تقديم «خير أمة» كالنموذج الأمثل الشامل: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ»». وفقًا لهذه الآية، هناك مؤشران رئيسيان لقيام «الأمة» هما «الإيمان» و«الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»، وتنبثق المؤشرات الحضارية الأخرى من هذين المؤشرين الأساسيين. كما يرتبط مؤشر «النظام» ارتباطًا وثيقًا بهذين المؤشرين الرئيسيين. يعتقد الخبراء أن مؤشر «النظام» فى الحضارات المادية يتشكل بدعم من عنصر «القوة» (كيسنجر، ١٣٩٨ش، ص ١١٠–١٢٠). يصنف العلامة جعفرى (رحمه الله) الحضارات إلى نوعين: «قائمة على القوة» و«قائمة على الإنسان». وهو يرى أن الإسلام يمثل حضارة قائمة على الإنسان؛ إذ هذه الحضارة التوحيدية تنشأ وتتطور من خلال هداية الإنسان وارتقائه (جعفرى، ١٣٥٩ش، ص ٢٤١–٢٤٩). وتعتبر «القوة» عنصراً مؤثراً فى إقامة «النظام» فى جميع الحضارات. لكن طبيعة «القوة»، ومنشأها، وآلية إنتاجها، ومكانتها فى «الحضارة التوحيدية» تختلف عن نظيراتها فى الحضارات المادية. وفقًا للقرآن الكريم، تنشأ «القوة» فى «الحضارة التوحيدية» من «الإيمان»: «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (آل عمران، ١٣٩). كما ينشأ «النظام» أيضًا فى «الحضارة التوحيدية» من منبع إيمانى. وبعبارة أخرى، فإن «الإيمان» هو العامل الرئيسى لإقامة «النظام» فى «الحضارة التوحيدية». المقصود بـ«الإيمان» هو الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح: «[الإيمان] معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان» (نهج‌البلاغة، الحكمة ٢٢٧). إن دخول «الإيمان» إلى نسيج المجتمع يفضى إلى ظهور العديد من العناصر الإيمانية. ويتم انتشار «الإيمان» من الحيز الفردى إلى الحيز الاجتماعى الكلى من خلال وجود العناصر الإيمانية وتكاثرها فى صلب المجتمع.

يقدم القرآن الكريم عدداً كبيراً من العناصر الإيمانية، لكل منها دور بارز فى بناء «الحضارة التوحيدية». بعض العناصر الإيمانية، مثل عنصر «العدالة»، تلعب دوراً أساسيًا فى إيجاد واستمرار «النظام» فى «الحضارة التوحيدية». ونظراً لأن طبيعة العلاقات الإنسانية فى «الحضارة التوحيدية» هى علاقات إيمانية، فإن النظام الإنسانى فيها سيكون بدوره «نظامًا إيمانيًا». ومن أجل إصلاح المجتمعات الإنسانية وبناء حضارة توحيدية، ينقل القرآن الكريم مؤشر «الإيمان» من مستواه الفردى إلى المستوى الاجتماعى العام. فكل آية قرآنية تتضمن لفظًا أو حتى مفهومًا إيمانياً، تُقدّم شكلًا من أشكال متطلبات العلاقات الإنسانية القائمة على الإيمان. وفى الآية ١١٠ من سورة آل عمران، يقابل القرآن بين نمطين من العلاقات الإنسانية: علاقات قائمة على الإيمان، وأخرى قائمة على الفسق: «مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ». حقيقة «الإيمان» لا تقتصر على الاعتقاد القلبى، فالإيمان الصحيح هو الذى يتجاوز مرحلة القلب واللسان ليظهر فى العمل (نهج‌البلاغة، الحكمة ٢٢٧). إن الإيمان المصحوب بالعمل الصالح هو إيمان قادر على بناء الحضارة، وطالما أن «الإيمان» لم يتجاوز العلاقات الفردية أو الجماعية الصغيرة ولم يبلغ المستوى الاجتماعى والحضارى الكلى، فلن تتحقق «الحضارة التوحيدية». كل عنصر من العناصر الإيمانية يلعب دوراً فى بناء وتعزيز واستمرار نظام العلاقات الإنسانية القائم على الإيمان فى «الحضارة التوحيدية». والخطوة الأولى للتعرف على العناصر الإيمانية هى مراجعة آيات القرآن الكريم واستكشاف شبكة الآيات فى حقل «الإيمان» الدلالى. من الواضح أن الآيات المتعلقة بموضوع «الإيمان» تغطى حجمًا هائلًا من آيات القرآن الكريم، بما تشتمل عليه من كم هائل من المفاهيم والشبكات الترابطية بينها، تتطلب كلّ منها بحثًا مستقلًا. وفى هذا البحث، يتم استنطاق «العدالة» بوصفها عنصراً إيمانيًا مؤسسًا لـ«النظام» فى آيات القرآن الكريم.

٢– العدالة المؤسسة على الإيمان

تُعدّ «العدالة» أحد العناصر الإيمانية الأساسية. وقد عرّف أمير المؤمنين (عليه السلام) العدالة بقوله: «[العدل] يضع الأمور فى مواضعها» (نهج البلاغة، حكمة ٤٣٧). وقد وردت كلمتا «العدل» و«القسط» فى القرآن الكريم بمعنى العدالة (طباطبائى،١٤١٧ق، ج٥، ص ١٧٥). وقد ذكر معظم علماء اللغة أن هاتين الكلمتين مترادفتان (ابن دريد، ١٩٨٨م، ج٣، ص ١٢٦٥؛ الأزهرى، ١٤٢١ق، ج٨، ص ٢٩٩)، بينما ذهب بعضهم إلى وجود فرق دقيق بينهما. ففى كتاب «فروق اللغة»، فُسّر «العدل» بأنه العدالة فى الخفاء، و«القسط» بأنه العدالة فى الظاهر (عسكرى، ١٤٠٠ق، ج١، ص ٢٢٩). ويُلاحظ اقتران لفظ «إقامة» بكلمة «القسط» فى كثير من آيات القرآن الكريم، مما يدل على البُعد الاجتماعى الوظيفى لمفهوم «القسط». وفى القرآن الكريم، وردت هاتان الكلمتان فى سياق الحديث عن «الله» و«الملائكة» و«الإنسان» و«الرسول». فوفقًا للآية ٤٧ من سورة يونس، يبعث الله تعالى رسولًا لكل أمة ويقضى بينهم بالقسط: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» (يونس، ٤٧). ووفقًا لهذه الآية، يقابل «القسط» (العدالة) «الظلم». كما أن الآية تُبيّن مقام «القسط» لله تعالى. وبحسب الآية ١٨ من سورة آل عمران، فإن الملائكة ومن اصطفاهم الله من عباده أيضًا مأمورون بالقيام بالقسط: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». لقد خلق الله تعالى العالم على أساس نظام القسط الإلهى. كما أن الرسل والأنبياء كانوا مكلفين بإعداد الناس لإقامة القسط. وفى الآية ٢٥ من سورة الحديد، يتحدث القرآن الكريم عن مهمة إقامة القسط من قبل الناس أنفسهم: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ». بوجود الرسل فى كل أمة، يكتسب البشر القدرة على إقامة القسط، وبذلك تكتمل الحجة عليهم.

تشير لام الغاية فى عبارة «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» إلى أن الهدف من إرسال الرسل إلى كل أمة هو الارتقاء بالناس وتمكينهم من أداء المهمة العظيمة المتمثلة فى إقامة «القسط». وتُبيّن آيات أخرى من القرآن الكريم كيفية تمكين الناس من هذا الدور. ففى الآية ١٣٥ من سورة النساء، وكذلك الآية ٨ من سورة المائدة، يُؤمر المؤمنون بإقامة «القسط» والشهادة به. وتُعدّ إقامة «القسط» أحد مظاهر الإيمان، إذ إن دخول الإيمان إلى القلب واللسان والعمل هو ما يُفضى إلى إقامة «القسط»، ولا يتحقّق الإيمان أو الارتقاء به إلا من خلال الارتقاء الروحى للإنسان. فبممارسة تعاليم الأنبياء الإلهيين، يهتدى الإنسان ويكتمل. كما أن إقامة «القسط» من قبل المؤمنين هى مثال على انتقال الإيمان من الحيز الفردى إلى الحيز الاجتماعى العام. ويصل إيمان الأفراد إلى نسيج المجتمع من خلال ظهوره فى شكل عناصر إيمانية فاعلة. ومن الواضح أن حصر الإيمان فى القلب أو حتى فى اللسان، أو اختزاله فى بُعد لاهوتى صرف، يتعارض مع هدف القرآن الكريم فى هداية الإنسان. كما أن آيات القرآن تدلّ بظاهرها على ضرورة تطبيق «الإيمان» فى الساحات الاجتماعية وعلى مستوى العلاقات الإنسانية. إن «العدالة» تُعدّ واحدة من العناصر الإيمانية الكثيرة التى يذكرها القرآن الكريم. وتُظهر عملية تحوّل الإيمان إلى عناصر إيمانية مثل «العدالة» من خلال الخطاب القرآنى الموجّه إلى المؤمنين لإقامة «القسط». ويُبنى «النظام الإيمانى» فى المجتمع عبر هذه العناصر الإيمانية. فالإيمان يُنتج عناصر إيمانية، وهذه العناصر تُفضى إلى قيام النظام. فالإيمان يُنتج العدالة، والعدالة تُنتج النظام.

٣- خصائص العدالة المؤسسة على الإيمان

يختلف عنصر «العدالة» فى القرآن الكريم عن مفهوم العدالة المتعارف عليه فى المجتمعات البشرية. فـ«العدالة المؤسسة على الإيمان» تخلق نظامًا فريدًا يتجاوز أى حضارة مادية. والخصائص الفريدة التى يذكرها القرآن الكريم عن «العدالة» تقدم مفهومًا له يتجاوز تصورات البشر:

٣-١- الشمولية

تأمر الآية ١٣٥ من سورة النساء جميع المؤمنين بإقامة «القسط»: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا». ويرى العلامة المجلسى (رحمه الله) فى تفسيره لهذه الآية أنها تدلّ على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والسير فى طريق العدالة تجاه النفس والآخرين (طبرسى، ١٣٧٢ش، ج٣، ص ١٩١). وقد اضطلع جميع الأنبياء والأئمة، فى رأس الحكومات التوحيدية، بمسؤولية إقامة «القسط»، كما فى قوله تعالى: «قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ» (الأعراف، ٢٩)؛ «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» (يونس، ٤٧). ونظرًا لأن «العدالة» عنصر اجتماعى يتعلق بالعلاقات بين الأفراد، بل وحتى بين المجتمعات البشرية، قد يبدو للوهلة الأولى أن إقامتها تقع حصرًا على عاتق الحكومات والدول. ولا شك أن إقامة «القسط» من أهم واجبات الحكّام، إلا أن القرآن الكريم، بالإضافة إلى المسؤولية الخطيرة الملقاة على عاتق الحكّام لإقامة «القسط»، يجعل إقامة «القسط» واجبًا على جميع البشر: «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» (الحديد، ٢٥). فبحسب هذه الآية، يتحمل جميع البشر مسؤولية إقامة «القسط»، ويحاسبون أمام الله على هذه المسؤولية الإلهية. ومن مستويات إقامة «القسط» من قبل الناس هو القيام بالأعمال الصالحة على أساس «القسط»: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ» (يونس، ٤). ثم يُبيّن القرآن الكريم مستوى أسمى من إقامة «القسط»، وهو «الأمر بالقسط». ويندرج تحت هذا المستوى أولئك الذين لا يكتفون بالعمل وفقًا لمقتضيات «القسط» فحسب، بل يدعون الآخرين إليه أيضًا. ومع ازدياد الإيمان فى قلب الإنسان، يزداد مستوى تأثيره الإيمانى، ويتسع نطاق إيمانه فى الوحدات البشرية الأكبر عددًا. فكلّما تعمّق الإيمان فى الإنسان، تعاظمت همّته الإصلاحية تجاه الآخرين، وبذل جهوده لهداية الناس على مستويات أرقى. تشير الآية ٢١ من سورة آل عمران إلى المؤمنين الذين استشهدوا فى طريق الأمر بالمعروف (القسط): «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ». ففى هذه الآية، قد أتى ذكر استشهاد الآمرين بالقسط، بعد ذكر استشهاد الأنبياء، وهى تؤكد مرة أخرى على شمولية مسؤولية إقامة «القسط». يتحمل جميع البشر مسؤوليتين جسيمتين تجاه تحقيق «القسط» فى المجتمع: ١. القيام بالمسؤولية الإلهية المتمثلة فى إقامة «القسط». ٢. الأمر بإقامة «القسط» على مستوى المجتمع. بناءً على ذلك، لا تُسقط إقامة «القسط» من قبل فئة محددة فى المجتمع هذه المسؤولية الثقيلة عن باقى البشر، بل يبقى الجميع مطالبين بها أمام الله. فكل إنسان يجب أن يرى نفسه مسؤولًا عن إقامة «القسط»، وأن يسعى لنشر هذه الفريضة الإلهية بين سائر الناس، آمرًا إياهم بإقامة «القسط».

ومن البديهى أن إقامة «القسط» من قبل «الناس» تُفضى بشكل تلقائى إلى نشوء نظام شامل. نظامٌ ينبثق من مصدر ذاتى، هو الإيمان، ويستقر عبر إقامة «القسط» فى المجتمع. إن النظام الذى يُقدّمه القرآن الكريم يفوق كلّ نظام فى أى حضارة مادية، كما أن العدالة التى يطرحها القرآن تتجاوز العدالة المعهودة فى الحضارات المادية. ففى الحضارات المادية، يعمل منفذو القوانين الوضعية على إقامة «النظام»، بينما فى «الحضارة التوحيدية»، يخلق الناس من خلال تربية إيمانية تلقائية نظامًا شاملًا عبر إقامة «القسط»، و بعبارة أخرى، إن المشاركة القصوى للناس فى إقامة «القسط» تنتج هذا النظام الشامل. وبناءً على ذلك، فإن جميع البشر الذين يشاركون فى إقامة «القسط» يلعبون دورًا كبيرًا فى خلق «النظام». وتبعًا لاتساع نطاق المشاركة البشرية فى إقامة «القسط»، ينشأ نظام أوسع. ليس هناك لهذه المشاركة القصوى فى أداء الواجب العام المتمثل فى إقامة «القسط» سابقة فى أى حضارة مادية. هذه المشاركة تنشأ دون إكراه مادى، وباستسلام قلبى من الناس. فكل إنسان، وفقًا لمستوى إيمانه، يلعب دورًا فعالًا فى إقامة «القسط» على مستوى المجتمع.

٣-٢- الرقابة الذاتية

إن إقامة «القسط» فی «الحضارة التوحیدیة» تنبع من إیمان البشر الداخلی قبل أن تعتمد علی الإکراه الخارجی. فإقامة «القسط» التی تتحقق فی المجتمعات الإیمانیة لها مصدر داخلی؛ إذ إن الإنسان المؤمن یُقیم «القسط» فی ذاته قبل أن یُقیمه فی محیطه. ومن هنا، فإن أداء هذا الواجب الإلهی لا یمکن أن یتحقق من إنسان لم یتهذّب ذاتیًا ولم یروّض نفسه. فی بعض آیات القرآن الکریم، نری توصیات جادة من الأنبیاء بالعمل علی أساس «القسط»: «وَیَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِکْیَالَ وَالْمِیزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْیَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ» (هود، ۸۵)؛ «وَأَقِیمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِیزَانَ» (الرحمن، ۹). هذه الآیات تبین أن لیس جمیع البشر لدیهم القدرة علی العمل وفقًا لـ«القسط»، ولهذا فإن من مهام الأنبیاء إعداد الناس لتحمّل هذه المسؤولیة الإلهیة العظیمة. ولا یستطیع إقامة «القسط» ونشره فی المجتمع إلا من اتخذ العمل بمبادئ القسط منهجًا وسلوکًا له. ویملک المؤمنون قدرات متفاوتة علی إقامة «القسط» بحسب درجة إیمانهم. فکلّما تعمّق الإیمان فی النفس، ازدادت الرقابة الذاتیة علیه. وتشکل هذه الرقابة الذاتیة لدی المؤمنین، تجاه أنفسهم وتجاه الآخرین، شبکة علاقات إنسانیة قائمة علی الإیمان. وبقدر ما یتسع نطاق الإیمان، تتسع دائرة إقامة «القسط» فی العلاقات الإنسانیة. وکلما توسع «القسط» فی المجتمع، ینشأ نظام إیمانی أقوی وأکثر متانة فی نسیج المجتمع. وبالتالی، تزداد متانة ونظام هذه الشبکة البشریة بازدیاد إیمان الأفراد. إن النظام الناتج عن الرقابة الذاتیة للبشر یعمل بشکل أقوی وأکثر فعالیة من الرقابة الخارجیة لمنفذی القانون. وبعبارة أخری، المجتمع الذی یتمتع بالإضافة إلی الرقابة الخارجیة برقابة ذاتیة، ینشأ فیه نظام أکبر وأکثر متانة.

۳-۳- القیام الدائم

یرد استعمال کلمة «القسط» فی القرآن الکریم غالبًا مقترنًا بلفظ «القیام». ففی الآیة ۱۳۵ من سورة النساء، نجد عبارة «قَوَّامِینَ بِالْقِسْطِ». ویری بعض المفسّرین أنّ کلمة «قَوَّامِینَ» تدلّ علی کثرة القیام فی جمیع الأحوال والأزمنة والأمکنة (سید قطب، ۱٤۱۲ق، ج۲، ص ۷۷۵). و«قوّامین» جمع «قوّام»، وهی صیغة مبالغة تدلّ علی کثرة القیام، أی یجب أن یکون القیام بالعدل شأنًا دائمًا فی کل حال، وکل عمل، وکل عصر وزمان، حتی یصیر ذلک خلقًا راسخًا فی نفسه، ویصبح الانحراف عنه مخالفًا لطبیعته وروحه. (مکارم شیرازی، ۱۳۷٤ش، ج٤، ص ۱٦۲). إن أمر الله تعالی للمؤمنین بالقیام بالقسط هو أمر شامل، یجب تنفیذه فی جمیع الظروف والأحوال. فالمؤمن لا ینبغی له أن یتخلّی عن واجب إقامة «القسط»، وعلیه أن یؤدّی هذا الواجب بما یتناسب مع وضعه وظروفه الزمانیة والمکانیة. ومن الواضح أن مثل هذا الأمر الإلهی الجلیل لا نظیر له فی أی حضارة مادیة. وقد صُمّم هذا التکلیف الإلهی بما یتناسب مع طبیعة الإنسان وروحه. ویُظهر أمر الله تعالی للمؤمنین بإقامة «القسط» العلاقة المباشرة بین «الإیمان» و«إقامة القسط». إن إضافة لفظ «القیام» إلی «القسط» فی القرآن الکریم یدلّ علی عظمة هذا التکلیف الإلهی. فإقامة «القسط» من قِبل إنسان مؤمن تُسهم فی ضخّ هذا المبدأ فی نسیج العلاقات الإنسانیة التی تضمّ جماعات من الناس. ولا یتحدث القرآن الکریم عن «القسط» بوصفه واجبًا فردیًا محضاً، بل إن هذا المفهوم لا یکتسب فعالیته إلا حین یُطبّق فی جماعة بشریة. کما أن الأمر القرآنی بإقامة «القسط»، هو الآخر، یُبرز بوضوح البُعد الاجتماعی لهذا الفعل، ویؤکده استخدام صیغة الجمع «قوّامین»، التی تُضفی مزیداً من التأکید علی الطابع الجماعی والمستمر لهذا الواجب. إن الأمر بإقامة القسط، لا سیما إذا أخذنا فی الاعتبار ما تتضمنه صیغة المبالغة من تأکید، یُظهر أن إقامة «القسط» تُدخل عدداً کبیراً من البشر فی شبکة إنسانیة مترابطة قویة، وتسوق هذا الکم الهائل من المؤمنین فی مسار مشترک. ثم إن المواظبة الدائمة للمؤمنین علی إقامة «القسط» تُعزز من قابلیة المجتمع للانضباط وتُرسّخ النظام الجماعی. فعندما یلتزم عدد کبیر من الناس فی المجتمع بإقامة «القسط» ویعملون بموجبه، تقلّ الحاجة إلی العوامل الخارجیة لفرض «النظام». کما أن نسبة نجاح منفذی القانون فی إقامة «النظام» تزداد بازدیاد جهود الناس فی إقامة «القسط».

٣-٤- الإخلاص

تُشير بعض آيات القرآن الكريم إلى ضرورة «الإخلاص» فى القيام بـ«القسط»، كما فى قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» (النساء، ١٣٥)، وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» (المائدة، ٨). وبناءً على ذلك، فإن الهدف الأسمى للمؤمنين من إقامة «القسط» يجب أن يكون ابتغاء مرضاة الله تعالى وحده. فإذا لم يكن الدافع لإقامة «القسط» سوى رضا الله، فإن المؤمن لن يقع أسير أهواء وشهوات النفس. إن «الإخلاص» فى المؤمن يضمن استمرارية أداء هذا الواجب الإلهى، ويمنع تزعزع الشبكة الاجتماعية التى تنهض بمسؤولية إقامة «القسط». فـ«الإخلاص» لا يقتصر أثره على تحسين نوعية إقامة «القسط» وزيادة عدد القائمين به، بل يُقلّل كذلك احتمالية تفكك الشبكة المنظمة للعلاقات الإنسانية، وبالتالى يُقلّل من مظاهر الفوضى والخلل فى «الحضارة التوحيدية».

٣-٥- الانحياز للحق

تشير العبارة القرآنية «وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ» فى الآية ١٣٥ من سورة النساء إلى أن إقامة «القسط» يجب أن تكون على أساس «الحق». فلا يجوز للمؤمن أن يُدخل أدنى مصلحة شخصية أو عائلية فى أداء هذا التكليف الإلهى. وعلى الرغم من توصيات القرآن الكثيرة ببرّ الوالدين ورعاية حقوقهم، إلا أن ذلك لا يُبرّر التهاون فى إقامة «القسط» من أجلهم. وقد ذكرت الآية الكريمة الوالدين إلى جانب النفس والأقارب بشكل صريح، حتى لا يبقى أى مجال للشك أو التردد فى حدود إقامة «القسط». إن مثل هذا التوجيه حول «إقامة القسط» والعمل وفق القانون بمعزل عن المصالح الشخصية لا نظير له فى أى حضارة مادية؛ إذ إن الحضارة التى تُبنى على الماديات، تُعلى شأن المصالح المادية وتعطى الأولوية للمنافع الشخصية. وهذا فى حين أن من أسباب اختلال النظام فى المجتمعات هو تغليب المصالح الفردية أو الفئوية أو الحزبية على الحق. وعندما يُقدّم المؤمن جانب الله فى أداء واجباته، ويُقصى طلب المنفعة، فإن احتمال تفكك شبكة العلاقات الإنسانية المنظمة ينتفى أو يتضاءل إلى الحد الأدنى. فالمؤمن، حين تتعارض مصالحه أو مصالح والديه وأقاربه مع الحق، يجب أن يقف فى صفّ الحق دون تردد. وتُبيّن الآية ٢٤ من سورة التوبة معيار صدق الإيمان، وهو مدى حبّ الإنسان لله ورسوله، حيث جاء فيها: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَ ... ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ». وبناءً على هذه الآية، فإن من يُقدّم حبّه لوالديه، وأبنائه، وإخوانه، وزوجته، وأقاربه، أو لأمواله وتجاراته ومساكنه على حبّ الله ورسوله والجهاد فى سبيله، فهو فاسق. وبالتالى، فإن تفضيل أى شىء أو أى أحد على الله ورسوله يُخرج الإنسان من دائرة الإيمان. إنّ الإنسان الذى يتّخذ الحقّ مبدأً لحياته هو وحده القادر على أن يضحى بمصالحه الشخصيّة وبمصالح أحبّته فى سبيل الله ورسوله. وإنّ مدى تضحية هكذا إنسان مرتبطٌ بدرجة إيمانه؛ فكلّما ازداد إيمانه رسوخًا، ازداد انحيازه للحق. ومع ازدياد عدد الحقّانيين وارتفاع منسوب الإيمان بين الناس، يتّسع نطاق الإيمان فى المجتمع، فتتراجع فيه الأنانيّة ويتعاظم الانحياز للحق فى النسيج الاجتماعى. إن انحياز المؤمن للحق لا يخفّف من احتمالات تفكك «النظام» فحسب، بل تُسهم أيضًا فى تعزيز متانة العلاقات الإنسانية داخل «الحضارة التوحيدية»، وتوسيع دائرة الحقّانيين فيها. وبناءً عليه، فإن الانحياز للحق يُفضى بطبيعته إلى نظام أكثر تماسكًا ورسوخاً، ويُسهم فى اتساع رقعة «الحضارة التوحيدية».

٣-٦- التحرر من الأهواء

تُجيب عبارة «فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا» فى الآية ١٣٥ من سورة النساء عن شبهة تدخّل الأهواء فى إقامة «القسط». فبحسب هذه الآية، لا يجوز أن تتأثر إقامة «القسط» بالأهواء والرغبات الدنيوية. ويرتبط ترك اتباع الهوى ارتباطًا مباشراً بالإيمان؛ فكلّما زاد الإيمان، قلّ الانقياد للأهواء. ويضمن الإنسان المؤمن، من خلال مخالفته للأهواء والشهوات، نشوء واستمرار «النظام» الناتج من «العدالة المؤسّسة على الإيمان». وفى الحقيقة، من يُقحم أهواءه فى إقامة «القسط» لا يمكنه أن يُقيمه فعلاً. وبعبارة أخرى، تُبيّن آيات القرآن الكريم أن إقامة «القسط» لا تكون ممكنة إلا فى حال التحرر الكامل من الأهواء. فالذى يُقدّم هواه على الحق، لا يملك القدرة على إقامة «القسط». ولا يتحقق هذا التكليف الإلهى إلا حين يكون الإنسان متحرراً من كلّ نزعة نفسية تُزاحم الحق.

٣-٧- التزام التقوى

يُعدّ «التزام التقوى» من الأوامر القرآنية التى تُستخدم لتقييم مدى نجاح الإنسان فى مسار إقامة «القسط». وبعبارة أخرى، فإن المؤمن الذى بلغ درجة التقوى يكون قد نجح أيضًا فى أداء واجبه الإلهى فى إقامة «القسط». فبحسب الآية ٨ من سورة المائدة، فإن إقامة «العدل» و«القسط» تُقرّب الإنسان من التقوى: «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى». وتُعدّ «التقوى» خلاصة جميع الخصائص التى يصفها القرآن الكريم لـ«العدالة المؤسسة على الإيمان». فكلّ خاصية من هذه الخصائص تُقرّب الإنسان من التقوى. فالمؤمن الذى لا يتّبع أهواءه، ويقدّم الحقّ على مصالحه الشخصيّة والعائليّة، ويُخلص فى إقامة القسط لوجه الله تعالى، لا شك أنه قد اقترب من حدود التقوى. إن النسبة بين «القسط» و«التقوى» هى العموم والخصوص المطلق؛ فكلّ متّقٍ يُقيم «القسط»، لكن ليس كلّ من يُقيم «القسط» بالضرورة متّقياً. ومن هنا، تُعدّ «التقوى» عنصراً أقوى فى ترسيخ النظام داخل المجتمع. وعلى الرغم من أن «التقوى» ليست عنصراً شائعًا بين جميع الناس، إلا أن كلّ فرد متّقٍ يُعدّ عنصراً محورياً فى إرساء «النظام» فى المجتمع. وبقدر ما يزداد حضور الأتقياء فى المجتمع، وتتعاظم جهودهم فى تهذيب أنفسهم والارتقاء بالآخرين، يحظى «القسط» بحضور أكثر فى المجتمع، ويترسّخ النظام تبعًا لذلك. إن هذا الارتباط الوثيق بين «التقوى» و«النظام» هو ما يمكن ملاحظته أيضًا فى وصية أمير المؤمنين (عليه السلام)، حيث قال: «أوصيكما بتقوى الله ونظم أمركما» (نهج‌البلاغة، الرسالة ٤٧).

ومن خلال التأمل فى آيات القرآن الكريم، يتّضح أن هذه الخصائص السبع لـ«العدالة المؤسسة على الإيمان» مترابطة ترابطًا وثيقاً. فالجهود المستمرة والخالصة التى يبذلها الإنسان الحقانى، بعيداً عن أهواءه وشهواته، فى سبيل إقامة «القسط»، لا تتكلل بنجاح إلا من خلال رقابته الذاتية على أعماله والسير نحو التحلى بـ«التقوى». بل إن بعض المفسرين، كالفخر الرازى، فسّر عبارة «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» على أنها تدلّ على وجوب العدل (الفخر الرازى، ١٤٢٠ق، ج١١، ص ٣٢٠). استناداً إلى آيات القرآن الكريم، إن «التقوى» تمثّل مرتبة تالية لمرتبة «العدالة». بل يمكن القول إنّ المرحلة المتكاملة من ممارسة العدل لا تتحقّق إلا عندما يبلغ الإنسان درجة التقوى. وكلّما اقتربت العلاقات الإنسانية فى المجتمع من أفق التقوى، أصبحت إقامة «العدل» أكثر ضمانًا واستقراراً. وبعبارة أخرى، إنّ إقامة القسط فى المجتمع التقىّ أكمل وأوسع نطاقًا من أىّ مجتمعٍ آخر. ومن خلال الجمع بين عبارتين قرآنيتين: «فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا» (النساء، ١٣٥)، و«اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» (المائدة، ٨)، تتشكّل لدينا معادلة قرآنية: فبحسب الآية الأولى، تركُ اتّباع الهوى يؤدّى إلى العدل، وبحسب الثانية، تحقّق العدل يُفضى إلى التقوى. وتستند الخصائص التى وردت فى شأن «العدالة المؤسسة على الإيمان» إلى ترتيب العبارات القرآنية فى الآية ١٣٥ من سورة النساء. ووفقًا لهذا الترتيب إن الرقابة الذاتية، والسعى الدائم والمخلص

لتحقيق الحق إنما تتحقق فى الإنسان المؤمن الذى لا يخضع لأهوائه. فالإنسان الذى قد تحرّر من سلطان الهوى، يُقيم العدالة، ويملك القدرة على إقامة «القسط» على مستوى «الحضارة التوحيدية للأمة». وتُظهر هذه الحقيقة القرآنية أحد الفروق الجوهرية بين العدالة فى الحضارات المادية، والعدالة فى «الحضارة التوحيدية للأمة».

ويرى الشهيد مطهرى (رحمه الله)، أن العدالة فى المجتمع بمنزلة الأساس فى البناء (مطهرى، ١٣٨٩ش، ص ١٨). وتُنتج الخصائص التى يصفها القرآن الكريم لـ«العدالة المؤسسة على الإيمان» نموذجًا فريدًا من العدالة، لا نظير له فى أى حضارة مادية. فـ«العدالة المؤسسة على الإيمان» تُفضى إلى «نظام إيمانى» يتجاوز كلّ أشكال النظام الأخرى. وكلّما تحقّقت هذه الخصائص فى عدد أكبر من الناس، ازداد تماسك النظام فى نسيج «الحضارة التوحيدية للأمة». وكلّما بلغ عدد أكبر من الناس درجة «التقوى»، ازدادت قوة «العدالة الإيمانية»، وتعزّز «النظام الإيمانى» فى بنية هذه الحضارة. تُعدّ «العدالة» أحد العناصر الإيمانية التى يقدّمها القرآن الكريم بوصفها أساسًا لإرساء «النظام» فى «الحضارة التوحيدية للأمة». وتتحقّق حقيقة الإيمان من خلال تجلّى عناصره فى المجتمع، وبالتالى، فإن اتساع نطاق الإيمان من المستوى الفردى إلى المستوى الجماعى يتحقق عبر ظهور عناصر إيمانية، كـ«العدالة»، فى البنية الاجتماعية. وكلّما ازداد الإيمان، ازدادت العدالة فى المجتمع. وبقدر ما تنتشر خصائص «العدالة الإيمانية» بين جماهير المؤمنين داخل «الحضارة التوحيدية للأمة»، تزداد احتمالية تحقق «النظام الإيمانى». ويُسهم بناء «العدالة المؤسسة على الإيمان» واتساع رقعتها فى تقليص مظاهر العنف، والفوضى، والاضطرابات الاجتماعية، ويُعزّز من روح الإيثار والتضحية. وكلّما تراجعت الأنانية، وتعاظمت النزعة نحو إيثار الغير على النفس داخل المجتمع، توفّرت الأرضية اللازمة لإقامة «النظام».

الخاتمة

إن «الإيمان» هو المنشأ الأساسى لبناء واستمرار «النظام» فى «الحضارة التوحيدية للأمة». فالإيمان المتمكّن فى القلب، إذا ما ظهر على اللسان، وتجلى فى العمل، يمهّد الأرضية لكى يتوسع نطاقه فى الاجتماع أيضًا. إن اتساع رقعة الإيمان من المستوى الفردى إلى المستوى الاجتماعى الكلى يتمّ من خلال ظهور مجموعة من العناصر الإيمانية فى المجتمع. وتُعدّ العناصر الإيمانية نتاجًا للتفاعل الإيمانى بين الأفراد داخل منظومة العلاقات الإنسانية. ومن بين هذه العناصر، تبرز «العدالة» بوصفها عنصرًا مهمًّا فى إقامة النظام داخل «حضارة التوحيد». وتختلف طبيعة العدالة والنظام، من حيث النوع والكمّ، بين الحضارات المادية والحضارة التوحيدية. فالطبيعة، وآليات الإنتاج، والمؤشّرات للعناصر فى «الحضارة التوحيدية» تختلف جذريًا عن نظيراتها فى الحضارات المادية. حتى المؤشّرات التى تبدو مشتركة بين الحضارات، مثل «النظام»، تحمل دلالات مختلفة فى كلّ حضارة. إن «الحضارة التوحيدية للأمة» تُعدّ حضارةً قائمة على الإنسان، حيث تتشكّل من خلال تربية الإنسان المؤمن، ويعتمد بقاؤها على «الإيمان». كذلك، تُعتبر «القوة» الركيزة الأساسية لإرساء «النظام» فى الحضارات المادية، بينما يُشكّل «الإيمان» العامل الجوهرى فى بناء «النظام» داخل «الحضارة التوحيدية للأمة». ففى الحضارات المادية، يُعتمد على الإكراه الاجتماعى والرقابة الخارجية لضمان الالتزام بالقوانين وتحقيق العدالة، ومن ثمّ إقامة النظام. أما فى «الحضارة التوحيدية»، فإن الرقابة الذاتية لدى الإنسان المؤمن، إلى جانب الرقابة الخارجية التى يقوم بها منفذو القانون، تُنتج «العدالة المؤسسة على الإيمان»، والتى تُفضى بدورها إلى «النظام المؤسس على الإيمان». وفى حين أن تطبيق القانون وإقامة العدل فى الحضارات المادية يهدف إلى تحقيق النظام، فإن إقامة «القسط» فى الحضارة التوحيدية تنطلق من مبدأ الانحياز للحق، ويُعدّ النظام ثمرةً طبيعية لإحقاق الحق. أما مؤشر «النظام» فى «الحضارة التوحيدية للأمة» فهو مؤشر متفرّع من مؤشر «الإيمان». فالمؤمن، بحكم

إيمانه، يملک قلبًا ولسانًا وعملًا إيمانياً. ومن هذا الإنسان المؤمن، ومن المجتمع المؤمن، تنشأ «العدالة المؤسسة على الإيمان»، والتی تُنتج بدورها «النظام الإيمانی». إن العدالة التی يُقدّمها القرآن الكريم تُشكّل تحديًا جوهريًا لمزاعم العدالة فی أی حضارة أخرى.

المصادر

القرآن الكريم.

نهج‌البلاغة.

ابن دريد، محمد بن الحسن (١٩٨٨م). *جمهرة اللغة*. بيروت: دار العلم للملايين، ج٣.

الأزهری، محمد بن أحمد (١٤٢١ق). *تهذيب اللغة*. بيروت: دار إحياء التراث العربی، ج٨.

بابايی، حبيب‌الله (١٣٩٩ش). *تنوع و تمدن در انديشه اسلامی*. قم: المعهد العالی للعلوم والثقافة الإسلامية.

جعفری، محمدتقی (١٣٥٩ش). *ترجمه و تفسير نهج‌البلاغه*. تهران: دفتر نشر فرهنگ اسلامی.

سيد قطب، ابن ابراهيم الشاذلی (١٤١٢ق). *فی ظلال القرآن*. بيروت–القاهرة: دار الشروق، الطبعة السابعة عشرة، ج٢.

صدر، سيد محمدباقر (١٣٩٥ش). *شيوه كشف پاسخ‌های قرآن به پرسش‌های معاصر انسان و ترجمه بحث‌هايی از انديشمند بزرگ آيت‌الله شهيد سيد محمدباقر صدر*. ترجمة: محمدحسين ملک‌زاده. قم: اعتدال اسلامی.

طبرسی، فضل بن حسن (١٣٧٢ش). *مجمع البيان فی تفسير القرآن*. تهران: انتشارات ناصر خسرو، چاپ سوم، ج٣.

عسكری، حسن بن عبدالله (١٤٠٠ق). *الفروق فی اللغة*. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ج١.

مكارم شيرازی، ناصر (١٣٧٤ش). *تفسير نمونه*. تهران: دار الكتب الإسلامية، ج٤.

طباطبائی، سيد محمدحسين (١٤١٧ق). *الميزان فی تفسير القرآن*. قم: مؤسسة النشر الإسلامی التابع لجماعة المدرسين، الطبعة الخامسة، ج٥.

الفخر الرازی، محمد بن عمر (١٤٢٠ق). *التفسير الكبير مفاتيح الغيب*. بيروت: دار إحياء التراث العربی، الطبعة الثالثة، ج١١.

قاسمی، كوثر؛ فتاحی‌زاده، فتحيه؛ بابايی، حبيب‌الله (١٣٩٨ش). «امت» فراتر از تمدن در آينه قرآن. *نقد و نظر*، ٢٤(٣).

كيسنجر، هنری (١٣٩٨ش). *نظم جهانی؛ تأملی در ويژگی ملت‌ها و جريان تاريخ*. ترجمة: محمدتقی حسينی. تهران: انتشارات علمی و فرهنگی.

مطهری، مرتضی (۱۳۸۸ش). *عدل الهی*. تهران: صدرا.

مطهری، مرتضی (۱۳۸۹ش). *بیست گفتار*. تهران: صدرا.

Newman, J. (1979) .Two Theories of Civilization.*Philosophy*, no. 21.

الحوكمة في القرآن السنة